جامعة باجي مختار عنابة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم اللغة العربية وآدابها

المحاضرة الخامسة للسنة أولى ماستر مقياس: منهجية تحليل النصوص (أدب حديث + أدب قديم)

أد/عائشة رماش

مناهج دراسة النص من الداخل ومن الخارج

إن المنهج بوصفه إطارا علميا يساعد على كشف جماليات النصوص وفهم مكوناتها وأبعادها الدلالية هـ: «طريقة في البحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أوشبه مضمونة في أقصر وقت ممكن، كما أنه وسيلة تحصن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري

فالمنهج بهذه الوجهة هو المفتاح الإجرائي الذي يساعدنا على كشف بواطن النصوص وحقائقها، لأنه ليس مجرد أداة منهجية فحسب، وإنما يختزل رؤية خاصة للعالم شارك في تفعيلها مجموعة الخلفيات السوسيوثقافية وغيرها التي أدت إلى ظهوره، وبالتالي فهو يساعدنا على رصد أبعاد النص الإبداعية.

إذا كان المنهج في تعريفه المتداول يتمثل في مجموعة من المفاهيم والتصورات المتصلة والأدوات والخطوات الإجرائية التي تفضي إلى نتيجة ما، فإنّ الإشكالية تظهر عند صعوبة ترتيبها وتنسيقها بالشكل الّذي يجعلها تؤدّي إلى النتيجة المنشودة. فقد أضحى التعامل مع هذه المادة أشدّ تعقيدا وتداخلا –لكونها تتميّز عن الظواهر والأنساق الثقافية والمعرفية الأخرى– مما جعل الكثير من النقاد يتساءلون: هل من منهج لفهم النّص ونقده؟

من هنا تبرز هذه الإشكالية في الصراع الممتدّ بين اتجاهين اثنين: يرى الاتجاه الأوّل أن النّص الأدبي علّة لمعلول سابق ينبغي الكشف عن دلالاته بربطه بسياقه الخارجي، ويدخل في هذا المجال المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي والأسطوري.

بينما يحاول الاتجاه الثّاني أن يدرس النّص الأدبي انطلاقا من العلاقات الداخلية التي تحكمه كالشكلانية والبنيوية والتفكيكية..، السيميائية، الأسلوبية، التداولية. وهناك من يطمح إلى الجمع بين الاتجاهين: داخل وخارج النّص، كالبنيوية التكوينية.

ويمكن القول إن المناهج النقدية تسير في اتجاهين: اتجاه سياقي حيث تدرس النصوص الأدبية في ظروف نشأتها والسياقات الخارجية لها ، والتأثيرات التي يتوقع للنص أن يؤثر فيما يحيط به، ويمكن أن يشمل هذا كل الدراسات النقدية التي لا تجعل النص الأدبي وحده مدار اهتمامها – أي أنها تتوسل بوسائل خارجية ليست من داخل النص نفسه .

واتجاه نسقي أو نصي (Textual) حيث ينصبّ النقد هنا على دراسة النص بذاته، ويسعى إلى الكشف عن العلاقات التي تتحكم بها من غير أن تعير أهمية كبيرة للسياقات الخارجية.

1- مناهج قراءة النص من الخارج: (المناهج السياقية)

اختلف النقاد منذ القديم في تصوراتهم واتجاهاتهم وقد تبلور هذا الاختلاف في العصر الحديث في مناهج واضحة المعالم وإن كان هذا الوضوح لا يمنع التداخل بسبب اتصالها ببعضها من خلال جدل الأفكار.

فمن المعروف أن مؤرخي الفكر النقدي وقفوا وقفة طويلة أمام نظرية المحاكاة عند كل من أفلاطون وأرسطو وحللوا موقف كل منهما من نظرية المحاكاة، فكانت المحاكاة عند أفلاطون كما يرى ديتشس المعظلة، وكانت المحاكاة لدى أرسطو هي الحل، لقد باعدت نظرية المثل الأفلاطونية بين الفن والحقيقة فجعلت الفن في المرتبة الثالثة في حين أعلنت نظرية المحاكاة لدى أرسطو قيمة من قيمة الفن وأحلته المكانة الأولى، وتعاقبن الأفكار والنظريات على مدى العصور، وأسهم نقدنا العربي القديم في حركة النقد العالمي حتى آل النقد إلى تيارات واتجاهات متباينة باتجاه المنطلقات والأفكار والعقائد والآراء. وقد أدت الثورة في الكشوفات الإنسانية والعلمية مثلما أدى تقدم النظريات العلمية إلى ربط النص الأدبي بهذه المعارف والأفكار والعلوم، حتى أصبحنا نرى النقاد يربطون بين النص والسيرة الأدبية للأديب؛ فاهتموا بسيرته وتناولوا النص على ضوء سيرته وعلى ضوء حياته الاجتماعية واهتموا بالكاتب أيضا من خلال علاقته بوطنه وجنسه وبيئته الأولى وأصدقائه ونجاحه وفشله وخصائص جسمه وعقله واهتموا كذلك بأسرته وثقافته وعصره، وبدا الناقد في تلقيه للنص كأنه عالم طبيعي يقف أمام ظاهرة طبيعية، وبدا الأدب تعبيرا عن نظام اجتماعي كما لاحظ سانت بوف (1804- 1869) ورأينا هيبوليت تان (1828-1893) يركز على عناصر ثلاثة هي: اللحظة التاريخية، التي ولد فيها العمل الأدبي، أي قيمة اللحظة التاريخية في فهم

العمل وتفسيره، والبيئة التي نجم فيها العمل الأدبي وتعني المناخ الجغرافي والاجتماعي في آن معا، والجنس الذي يحتفظ بالاستعدادات الفطرية الوراثية، وقد دعا فرديناند برونتيير (1849–1906) إلى قوانين علمية تحكم الابداع والنقد، تقوم على التصنيف والتفسير والحكم، ولم يهمل العوامل الخارجية على الرغم من اهتمامه بالمؤثرات الداخلية.

لقد قرن برونتيير بين مذهب التطور في علم الحياة والتطور في الأدب، وقد أثار هذا المنهج التاريخي الذي قرت بين الأدب والعلوم الطبيعية انتقادات واسعة لأنه ينادي بحتمية آلية أحس بعض نقاد هذا المنهج بعلوها فقاموا بعد ذلك بمراجعات قاسية.

ونادى النقاد بعد ذلك بضرورة الربط بين الأدب والمجتمع، وعدوا الاهتمام بالواقع ضرورة لا بد منها، ولقد أولى مفكر مثل ماركس البنية التحتية وهو اللاقتصاد اهتماما أساسيا في طبيعة البنية الفوقية أي الثقافة ... ولقد قرن المذهب الاجتماعي بين الأدب وطبيعة الأشكال الاقتصادية، وقد نادى النقاد الماركسيون بإيجاد علاقة واضحة بين الأشكال الأدبية وعلاقات الإنتاج.

وبهذا أراد عزيزي الطالب هؤلاء النقاد أن يقرنون مثلا بين ظهور الاقطاع وطبقة قن الأرض وظهور الرومانس لتعزَى هذه الطبقة عن واقعها. إنهم يربطون بين ظهور الرواية والطبقة الوسطى، ويتصورون أن الرواية ستتطور إلى ملحمة في المستقبل حين يصبح المجتمع مجتمعا بلا طبقات.

وستظهر أفكار تبلور الواقعية وصولا إلى تعريف الواقعية الاشتراكية وسيتحدث النقاد عن قضايا من أبرزها الالتزام والعلاقة بين المبدع والجمهور.

وسنجد المنهج النفسي يهتم بالعلاقة بين النص والمبدع، بوصف النص وثيقة تكشف عن نفسية الأديب، وبوصف حياة الأديب وثيقة تضيء عالم النص، ونجد بعض الدراسات النفسية تتجه إلى عملية الإبداع فتستكشف لحظة الإبداع ومصدره وما ينجم عن هذه اللحظة لدى المبدع، وقد اهتمت الدراسات النفسية بالنماذج النفسية في الأعمال الأدبية مثلما اهتمت بالقوانين النفسية التي تتبدى في الأعمال الأدبية، وقد اهتمت الدراسات النفسية بدراسة الآثار النفسية للأدب في نفس المتلقين، وقد انتهى النقد النفسي إلى الإفادة من نظريات علماء النفس لاسيما نظرية فرويد في اللاشعور.

ولم تقف دراسة الأدب من الخارج عند هذا الحد فقد ظهر النقد الإديولوجي ونقد الأفكار والنقد الأخلاقي وهو نقد لا ينصب على النص وحده وإنما ينطلق من خارج النص ليرى في النص رسالة مخصوصة تحقق أهدافا، فالناقد الأخلاقي يرتد إلى فترة زمنية متطاولة تعود إلى أفلاطون في عمله المعروف "الجمهورية" التي تعد طموحا أخلاقيا مثاليا واستمر ذلك في صنيع "هوراس وسدني وجونسون الذي أشاد بالمحتوى الأخلاقي في الشعر وكذلك الناقد "ماثيو أرنولد" الذي بين أهمية الجدية العالية في الفن، وظهر الهدف الأخلاقي لدى الإنسانيين الجدد الذين اهتموا بصورة رئيسية بفكرة أن الأدب يعد نقدا للحياة، ويرون أن دراسة التكنيك الأدبي هو دراسة للوسائل، بينما هم معنيون بغايات الأدب من حيث أثرها في الانسان، ذلك الأدب الذي يأخذ مكانته في ساحة الأفكار والمواقف البشرية.

- ❖ فالانسان في رأي الأخلاقيين يختلف عن الكائنات الأخرى بما يمتلكه من العقل والمقاييس الأخلاقية.
- ❖ قال هؤلاء بأن الانسان حر ومسؤول في الوقت ذاته.

- ورأوا أن شعارات الإنسانية هي النظام والكبت والضبط
- ولقد عارضوا الطبيعة التي تنكر على الانسان حرية الإرادة والمسؤولية والرومانسية المسرفة في الأنانية وفي التعبير غير المتحفظ
- واتهمت هذه الحركة بالتعصب والرجعية

ومهما يكن من تنوع هذه الحركة واختلاف منطلقاتها إلا أن أفرادها يؤمنون إيمانا قويا بأهمية الأخلاق باعتبارها رسالة الأدب السامية الأولى، وقد ظهر الاتجاه الأخلاقي لدى مناهج أخرى حتى لدى الشكليين أنفسهم.

نشاط

حاول عزيزي الطالب أن تتبين قيمة الأخلاق من خلال قراءتك لبعض محاورات أفلاطون ولاسيما المحاورة التي تجري بين "سقراط وأديمنتس" في الكتاب الثاني من الجمهورية وقد نقل "ديفيد ديتشس" هذه المحاورة وعلق عليها في كتابه "مناهج النقد الأدبي ص4 وما بعدها.

وهكذا فإن أصحاب التوجّه الخارج نصي يرون أن "النّص متحرك مفتوح يؤثر ويتأثر، وله تفاعلاته الذاتية والموضوعية وهو أداة فنية طبقية، والإنسان كائن تاريخي زمني لا تزامني، وهو بهذا المعنى يسهم (من خلال الأدب وغيره) في تشكيل العالم وتفسيره وفق الشرط التاريخي والقوانين الاجتماعية التاريخية التي تتحكّم بصيرورة العالم، فالنص متغيّر وكذا الإنسان والعالم. ومن واجب المبدع أن يرصد هذا الواقع رصدا آليا، ذلك على أساس أنّ الكتابة الأدبية ليست حقيقتها إلاّ امتداداً للمجتمع الّذي تَكْتُب عنه، وتُكْتَب فيه معا. كما أنها ليست، نتيجة لذلك، إلاّ عكسا أمينا لكلّ الآمال

والآلام التي تصطرع لدى النّاس في ذلك المجتمع. هذا الموقف يجعل العلاقة بين النصّ والواقع علاقة تناظر أو علاقة انعكاس وبذلك تلغى إبداعية النصّ وتحيله من إنتاج فنّي متميّز إلى ظاهرة اجتماعية تخضع لقوانين المجتمع مثل كلّ الظواهر الاجتماعية التي لها طابع مادّي أو نفعي آني يظهر هذا في معارضة هؤلاء للواقعية الرومانسية في تمجيدها للذّات المبدعة وحشرهم للنّص في إطاره المضموني وإغفالهم لإطاره اللّغوي في حين أن الفنّ "ليس انعكاسا سلبيا بل هو إسهام في التعرّف على الواقع وأداة شحنة وسلاح لتغييره... إنّ الواقع يبدو في الفن أكثر غنى من حقيقته الواقعة لأنّ الفنّ لا يقف عند الواقع في معطياته الخارجية المباشرة إنّما يتخّطى هذه المعطيات إلى إدراك جديدها فيبدو الواقع في صورة جديدة له صورته الفنيّة وهذه الصورة الفنيّة أكثر اكتمالا من أصلها لأنّها تلمّ ما بدا مبعثرا من عناصره وتوضّح ما بدا غامضا من مغزاه. إن الفنّ وإن كان ما مصدره الواقع إلاّ أنه يتجاوز الماثل في الواقع إلى اكتمال ما يشوبه من المثول ومن المباشرة الواقفة عند حدّ المرئيّ والملموس. فينتظم الشّوق إلى الاكتمال والحلم بما لم يقع واستشراف مستقبل آت ويتحرّر مفهوم الفني من الانعكاس السلبي. فينظم الذاتية الغنائية في وعيها بالحقيقة العيانية". هناك إذا علاقة ألفة بين الواقع والفنّ، علاقة جمالية تصبح فيها وظيفة الفنّ استدراك للنّقص الماثل في الواقع وإعادة للعلاقات التي تحكمه في قالب فنيّ جماليّ.

هذه الملاحظات تأتي لتأكّد أنّ من مهام النّقد الأدبي "هو بيان مدى التلاحم والانسجام بين العلاقات الداخلية للنّص أي القوانين الخاصة التي تحكم الظاهرة الأدبية وعلاقتها بإطارها الخارجي أي القوانين العامة التي تحكمها، فعدم الوعي بديناميكية العلاقة الداخلية والخارجية وجدليتها يؤدّي إلى إغفال الصفات النوعية للظاهرة الأدبية،

كما قد يؤدّي إلى التركيز على جانب من جوانبها، أو إغفال دلالتها إغفالاً تاما" ، وهي أمور تفضي بالضرورة إلى رؤية الظاهرة الأدبية على أنّها وثيقة تاريخية أو نفسية أو مجموعة مقالات سياسية أو النظر إليها على أنّها وحدة فنّية مستقلّة. وبذا، فإنّ النّص لا يحقق وجوده الفعلي إلاّ إذا وضع في إطاره المرجعي وَوُعِي وعيا كليا على أنه كلّ متكامل، بحيث لا يمكن الفصل بين شكله ومضمونه.

أ- أبرز مناهج دراسة النص من الخارج:

1- المنهج التاريخي:

حيث الاهتمام بالسياقات الزمنية للنصوص ومنتجيها بعيدًا عن الأحكام والمعايير التي ارتضاها الكلاسيون. ومن رواد هذا المنهج (تين- 1828- 1893) الفرنسي . ومؤثراته الثلاثة هي : الجنس، البيئة والعصر .

2- المنهج الاجتماعي:

حيث يتساوق وما طرحته فلسفة هيجل (1770- 1831) التي ربطت بين الأنواع الأدبية والمجتمعات، وكانت الواقعية إفرازًا بينًا فيه، كما أن الماركسية تُداخِل فيما بين المنهجين التاريخي والاجتماعي.

3- المنهج النفسي:

وفيه الاهتمام بشخصية الأدباء ودوافع الإبداع؛ يرى فرويد (1856-1939) أن الأدب تعبير مقنع يحقق رغبات مكبوتة قياسًا على الأحلام .. هذا يعنى النقد بتفسير الأدب لا الحكم عليه.

إضافة إلى ذلك هناك أيضا: النقد الأيديولوجي، الوجودي، الفلسفي، الديني، الأخلاقي، الأسطوري، وغيرها من التسميات طرحًا ورؤية.